الحكمة المشرقية

النفس من وجهة النظر الاسلامية الصوفية

فذلكة في العقل وشرفه وحقيقة اقسامه

للدكتور غلوش

١ — بيان شرف العقل

العقل منبع العلم ومطلعه واساسه والعلم يجري منهُ مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين وشرف العلم عظيم جدًّا بحيث لا يستراب فيه فالبهيمة مع قصور تميزها تحتشم العقل حتى ان اعظم البهائم بدناً وأشدها ضراوة وأقواها سطوة اذا رأى صورة الانسان احتشمهُ وهابهُ لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من ادراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الشيخ في قومه كالنبي في امته وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله. ولذلك ترى أحلاف الاتراك والاكراد وأحلاف العرب وغيرهم ممن تقرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع ولذلك تراهم يتوجهون اليهم ليحكموهم فيما ينشأ بينهم من خلاف في الرأي وينزلون عند حكمهم فيه

فشرف العقل مدرك بالضرورة وكفاه شرفاً أن العلم المستفاد منه قد استاه الله روحاً ووحياً وحياة فقال تعالى وكذلك أوحينا اليك روحاً من امرنا وقال سبحانهُ او من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا لهُ نوراً يمشي به في الناس . وحيث ذكر النور والظلمة اراد بهما العلم والجهل كقوله تعالى يخرجهم من الظلمات الى النور

وقال صلى الله عليه وسلم يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما امرتم به ونهيتم عنه واعلموا انهُ ينجدكم عند ربكم

وقال عليه الصلاة والسلام اول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال لهُ أدبر فأدبر ثم قال الله عزَّ وجل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليَّ منك بك آخذ وبك اعطي وبك أثيب وبك أعاقب

وعن أنس رضي الله عنه قال اثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل فقال نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وسألنا عن عقله فقال صلى الله عليه وسلم ان الاحمق يصيب بجهله اكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع الناس غداً في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم. وعن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اكتسب رجل مثل عقل يهدي صاحبه الى هدى ويرده عن ردى وما تم ايمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله . وقال صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم الرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم ايمانه واطاع ربَّهُ وعصى عدوه ابليس

وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته اما سمعتم قول الفجار في النار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير

وعن عمر رضي الله عنه انه قال لتميم الداري ما السُّؤدَد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال كثرت المسائل يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا ايها الناس ان لكل شيء مطية ومطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلاً

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون فلان أشجع من فلان وفلان أبلى مالم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر هذا فلا علم لكم به فقالوا وكيف ذلك يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم أنهم قاتلوا على قدر ما قسم لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فاذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم

وعن البراء بن عازب انهُ صلى الله عليه وسلم قال جدَّ الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجدَّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعمقهم بطاعة الله عزَّ وجلَّ أوفرهم عقلاً

وعن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يارسول الله بمَ يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل قلت وفي الآخرة قال بالعقل قلت أليس انما يجزون بأعمالهم فقال صلى الله عليه وسلم يا عائشة وهل عملوا الا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شيء آلة وعدة وان آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعي العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل ولكل امرىء عقب ينسب اليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون اليه ويذكرون به العقل ولكل سفر قسطاط وقسطاط للمؤمنين العقل

وقال صلى الله عليه وسلم ان أحب المؤمنين الى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح

وقال صلى الله عليه وسلم أتمكم عقلاً أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم فيما أمركم به وسهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً

٢ — حقيقة العقل وأقسامه

اختلف الناس في حد العقل وحقيقته حتى كشف العلماء المقربون الى الله عن ذلك وأخصهم الملهمون الذين أضاء الله بصائرهم بنور القرب والطاعة فأوضحوا ان العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة وما يجري هذا المجرى

فالأول — الوصف الذي يفارق الانسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي اراده بعض العارفين الحكماء وعبر عنه بقوله انه غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لادراك الاشياء على ما هي عليه في ظاهر الامر

الثاني — من اقسام العقل هي العلوم التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد وان الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد وهذا الوصف هو ما قال به أهل النطق وعلماء الكلام وهو صحيح في ذاته اذ هو التسليم الواجب بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ولا مشاحة في ان هذا الوصف من البداهة بحيث لا يحتاج الى بيان

الثالث — هي علوم تستفاد من التجارب بمجاري الاحوال فان من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال انه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال له غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً

الرابع — أن تنتهي قوة تلك الموهبة الفطرية الى قوة سامية تسمو بصاحبها الى إدراك

عواقب الأمور وقمع الشهوات الداعية الى اللذة العاجلة وقهرها وضبطها في نطاق محدود لا تتعداه بحال فاذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث ان اقدامه واحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه ايضاً من خواص الانسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان . وان كان بعض الحيوانات البهيمية يصدر منهُ ما يدل على نوع ما من هذا التبصر الا ان ذلك في الواقع يكون عنده صادراً عن غريزة حيوانية لا عن عقل حقيقي (مسألة التفرد وانتباهه)

فالقسم الاول هو الاس والأساس والمنبع

والثاني هو الفرع الأقرب اليه

والثالث فرع الاول والثاني ، إذ بقوة قبول العلوم الضرورية وبقوة هـذه العلوم تستفاد علوم التجارب

والرابع هو الثمرة الاخيرة وهي الغاية القصوى لكل انسان عاقل

فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب. ولذلك قال علي كرم الله وجهه

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والاول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ما خلق الله عز وجل خلقاً اكرم عليه من العقل

والاخير هو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء رضي الله عنه ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً فقال بأبي أنت وأمي وكيف لي بذلك فقال اجتنب محارم الله تعالى وأدّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً واعمل بالصالحات تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل في أجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والزلفى

وروي عن سعيد بن المسيب ان عمر وابي بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال صلى الله عليه وسلم العاقل قالوا فمن أعبد الناس قال العاقل قالوا فمن أفضل الناس قال العاقل قالوا أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته فقال صلى الله عليه وسلم وان كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ان العاقل هو المتقي وان كان في الدنيا خسيساً ذليلاً اي في أعين عوام الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر انما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته وعندي كما أختاره بعض المحققين من العارفين ان اصل التسمية اي تسمية العقل بهذا الاسم

في اصل الفطة انما هو تلك الفطرة المغروزة في جبلة الانسان العاقل وهي التي يسترشد بها الى ما هو ضار وما هو نافع وما هو جائز وما هو مستحيل وكذا في الاستعمال والاصطلاح ولكن هذه التسمية اطلقت على العلوم من حيث انها ثمرة العقل كما يعرف الشيء بثمرته ، فيقال العلم هو الخشية والعالم هو من يخشى الله تعالى فان الخشية ثمرة العلم

والخلاصة ان هذه الاقسام الاربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ثم ان العلوم التي تكتسب بالعقل الفطري في الانسان ليست في الواقع بشيء وارد عليه من خارج بل كأنها مستكنة فيه فظهرت كما يظهر الماء في الارض بحفر البئر وكما تظهر النار في الزناد بالقدح وكما يستخرج الزيت من الزيتون والدهن من اللوز بواسطة العصر والمعالجة وهكذا

ومن ذلك ما ورد من ان كل مولود يولد على دين الفطرة الى آخر الحديث المشهور ومعنى ذلك ان الايمان بالله عز وجل مركوز في جبلة الانسان بالفطرة العقلية وهو يقر بها اقراراً اذا لم يوجد بينهُ وبين هذا الاقرار حائل يمنع ظهوره . فهذه الجبلة او الفطرة هي العقل بعينه وما يصدر عن العقل من الآثار يسمى كذلك عقلاً او علماً او فهماً او ادراكاً الى غير هذه المسميات العديدة

واما من غاب عنه عقله فلا يصدر عنه الا الحمق والجهل والتباه ومثله مثل الاعمى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالاواني المصفوفة في الدار فيقول ما لهذه الاواني لا ترفع من الطريق وترد الى مواضعها فيقال له انها في مواضعها وانما الخلل في بصرك

٢ — في تفاوت الناس في العقل

اختلف الناس في تفاوت العقل في الاقسام التي ذكرناها ما عدا القسم الثاني وهو الذي قلنا انهُ عبارة عن العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات فان كل انسان ما خلا المجنون يقر معنا بأن الواحد اقل من الاثنين وان الاربعة اكثر من الثلاثة وانه من المستحيل ان يكون الجسم الواحد في مكانين في آن واحد أو ان يكون الشيء الواحد قديماً وحديثاً وكذا سائر التظائر وكل ذلك يدركه الانسان العادي ادراكاً محققاً من غير شك

واما الاقسام الثلاثة الاخرى فالتفاوت يتطرق اليها حتماً ولنتكلم عن القسم الرابع منها وهو المتعلق باستيلاء القوة الانسانية على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس في ذلك بل لا يخفى تفاوت احوال الشخص الواحد في هذا الشأن ويرجع التفاوت في تلك القوة تارةً الى تفاوت الشهوة اذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون البعض الآخر ولكن ذلك غير مقصور عليه فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا فاذا كبر وتم عقله قدر عليه وشارب الخمر قد تشتد به

الرغبة في تناولها حتى تأتيه الامراض بسببها من بين يديه وفي أخص اعضاء جسمه فيحذره الاطباء من تناولها فيمتنع عنها لا بقوته بل بقوة ما احدثته تحذير الاطباء له من الخوف على حياته وشهوة الرياسة وحب الرياسة تزداد في المرء قوة بالكبر لا ضعفاً

وقد تكون نسبة التفاوت في العلم المعرف لفائدة تلك الشهوة ولهذا يقدر الطبيب عادة على الاحتماء عن بعض الاطعمة المضرة وقد لا يقدر من لا يساويه في العقل على ذلك اذا لم يكن طبيباً وان كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ولكن اذا كان علم الطبيب اتم كان خوفه اشد فيكون الخوف جنداً للعقل وعدة له في قمع الشهوات وكسرها

وكذلك يكون العالم اقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي واعني بالعالم العالم الحقيقي الذي قال الله في حقه انما يخشى الله من عباده العلماء

واما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فانهم يتفاوتون بكثرة الاصابة وسرعة الادراك ويكون سببه اما تفاوتاً في الفطرة العقلية واما تفاوتاً في الممارسة فاما الاول وهو الاصل اعني الفطرة فالتفاوت فيه لا سبيل الى جحده فانهُ مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحة اي في أول النهار ومبادىء اشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموًّا خفي التدريج الى ان يتكامل قرب الاربعين سنة. ومثاله نور الصبح فانهُ في أوائله يكون طفيفاً ثم يتدرج الى الزيادة الى أن يكمل بطلوع قرص الشمس وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عزَّ وجل جارية في جميع خلقه بالتدريج في الايجاد حتى ان غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعةً وبغتةً بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج وكذلك جميع القوى ولولا هذا التفاوت في الغريزة لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما افتقروا الى بليد لا يفهم بالفهم الا بعد تعب طويل من المعلم والى ذكي يفهم بادنى رمز واشارة والى كامل تنبعث من نفسه حقائق الامور بدون التعليم كما قال تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسهُ نار نورٌ على نور وذلك مثل الانبياء عليهم السلام اذ يتضح لهم في يواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عنهُ بالألهام الرباني وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال إن روح القدس نفث في روعي أحبب من شئت فانك مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزى به. وهذا النمط من التعريف بالألهام الرباني يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا بالنفث في الروع ويتبع الانبياء عليهم السلام في تلقي الالهامات الربانية والعلوم اللدنية اولياء الله الذين تمسكوا بهديهم وساروا على سننهم وعضوا على سنتهم بالنواجذ وهم من قال الله في حقهم قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني أنهم أيضاً

يدعون الى الله على بصيرة من الأمر . وأما الوحي فهو شيء آخر بالمرة يختلف عن الالهام ونور البصيرة ومعرفة العالم بحالات الوحي لا يستدعي منصب الوحي اذ لا بعد ان يعرف الطبيب حالات الصحة ودرجاتها ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وحالاتها وان كان ذلك الطبيب خالياً من الصحة او كان العالم الفاسق خالياً من العدالة فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فاكل من عرف النبوة والولاية نبيًا او وليًا ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه تقيًا

***

وانقسام الناس الى من ينتبه من نفسه ويفهم والى من لا يفهم الا بتنبيه وتعليم والى من لا ينفعه التعليم ايضاً ولا التنبيه كانقسام الارض الى ما يجتمع فيه الماء فيقوى ويتفجر بنفسه عيوناً والى ما يحتاج الى الحفر ليخرج منه الماء الى القنوات والى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس من الارض وذلك لاختلاف جواهر الارض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في مزية العقل ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل اي من جهة ما ثبت من الشرع ما روي ان عبد الله بن سلام رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل جاء في آخره وصف عظم العرش وان الملائكة قالت يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بقع من قدره قال هيهات لا يحاط بعامه الخلق هل لكم علم بعدد الرمل قالوا لا قال الله عز وجل فاني خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطي حبة ومنهم من أعطي حبتين ومنهم من أعطي الثلاث والاربع ومنهم من أعطي فرقاً ومنهم من أعطي وسقاً ومنهم من أعطي أكثر من ذلك

***

هذه فذلكة في العقل وشرفه واقسامه ومنزلته من وجهة النظر الصوفية ومنها يتبين كيف أن هؤلاء القوم فاقوا غيرهم من عامة الناس وخاصتهم في البحث عن دقائق العقل ورفعوا شأوه وأعلوا شأنه واحلوه المحل الارفع فهم وان كانوا أشد الناس تمسكاً واعتصاماً بالمبادىء الدينية فانهم لم يغفلوا ولم ينكروا ما للعقول من مراتب الشرف والعظمة

وما حملنا على اثبات هذه الحقيقة الا ما وجدناه في نفوس بعض فلاسفة العصر وفريق كبير من المتفلسفة من الزعم بان الصوفية لا يحفلون في كثير ولا قليل بالابحاث العقلية ولا يلقون اليها بالهم وهو زعم يخالف الواقع ويغاير الحقيقة كما قدمنا

احمد غلوش
دكتور شرفي في الفلسفة والآداب
وخادم الجمع الصوفي الطوني بالاسكندرية